المرنيسي والنّظريّة النّسويّة

م. د. ديانا موسى الرّحيّل
كلية اليرموك/ جامعة ديالى

الملّخص

فاطمة المرنيسي عالمة الاجتماع المغربية، أبرز المناصرات لقضية المرأة في الوطن العربي، وهبت نفسها لتوجيه سهام النقد إلى وضعية المرأة في العالم الاسلامي، مركزة من خلال كتاباتها على العوامل الاجتماعية والثقافية التي ساهمت في وصول المرأة العربية إلى هذا الوضع المتردي، وخصّصت أعمالها لإيجاد أجوبة لأسئلة القلق، فقد وظّفت حاسّتها السسيولوجية لتعرية واقع المرأة العربية، والدّفاع عن حقوقها في التّحرر والانعتاق. وتعرّضت للثّوابت الاجتماعيّة والدّينية (حريم، جنس، عنف، تمييز) التي تعدّ عائقًا أمام إثبات المرأة لذاتها وتحرّرها من هيمنة المجتمع المحافظ والذّكوري المغربي، والعربي الإسلامي بعامّة، والنّظر أيضًا المرأة ككائن اعتباري له الحقوق التي للرّجل بلا تمييز. وناقشت لوضعية المرأة في العالم العربي الإسلامي، واهتمّت بمثلها في المجتمع الغربي نفسه، إذ فضحت فيه واقع الاستلاب والعبودية المقنّعة داخل الغرب، الذي ينظر إلى المرأة بوصفها دمية معدّة للاستغلال من قبل الرّجال. ووجّهت نقدًا لاذعًا إلى نظرة الغرب النّمطيّة تجاه المرأة العربية، التي تحصرها في الجنس والشّهوة واستبداد الرّجل، وتستخلص أنّ حريم الغرب أشد وطئًا على المرأة من حريم الشّرق. وأشادت بنضال المرأة في تحريك التاريخ ، ورفضت أن تقع في مصيدة القول بعدم التّوافق المفترى عليه بين الإسلام والديمقراطيّة. وسعت لبناء نظريّة إيجابيّة عن الحجاب، تتحدّى رؤية الثّقافة الشّائعة للنّساء المسلمات بوصفهن رهن الخضوع التّام من جانبهن والتّسلط المطلق من جانب الرّجال، مؤكّدة أنّ الحجاب لا يخنق الأنوثة، ولا يدلّ على غياب الاختيار، والحجاب أمر ديني، وترى المرنيسي في نظريّتها تجاه الحجاب بأنّ الحجاب أداة تقوّي المرأة على المقاومة في الثّقافة الرأسماليّة الاستهلاكيّة للقرن الواحد العشرين، بما فيه (سلعنة) الجسد الأنثوي.

Almernissi and Feminist Theory

Abstract

Fatma almernessi social scientist of Morocco, the most prominent advocacy the cause of women in the arab world, endowed itself to guide the arrows encourage to the status of women in the muslim world, focused through her writings on the social and cultural factors contributing in the arrival of the arab women to this situation deterioration, were devoted to its work to find questions concern where hired go see the reality of the arab women, an defend its rights in the liberation.

She been to social tabu and religious (women, sex, violence, discrimination),which is abarrier to the proof o women itself of the dominance of society governor and the male moroccan, and arab islamic in general, consider awomen as an object legal his right of man without discrimination.

Almerrnessi discussed women situation in the arab world islamic, and the same as in the western society in which the reality of slavery and convincing inside the west, which is seen to women as adoll thing exploited by men. Encountered deeply to look west stereotypes about arab women,which just in sex. Commended the women in moving the history,and refused to fall in trap say not to compatibility it between islam and democracy.

She expanded to build atheory of positive for the Hijjab, defy the seeing culture common muslim women which asubject to undergo full of violence, confirmed that the hijjab no stifles femininity, nor indicates the absence of choice, hijjab and religious, the view of Merrnissi towards the hijjab that the hijjab tool strengthens women on the resistance in culture capitalism consumer-century one-twentieth, including the women body.

Keywords: Faminist Theory. Mernissi. Hijjab .

الكلمات المفتاحية: النّظريّة النّسويّة، المرنيسي، الحجاب.

مقدمة

بدأ اهتمام المرنيسي بقضية المرأة نظرًا لاتّهام المرأة بأنّها أسيرة الرّجل وكأنّها جاريته التي يتمتّع بها، من دون أي حقوق أو واجبات، وليس لها شخصيّة مستقلّة عن الرّجل، واتّهامها بعقلها بأنّها في وضع عقلي متخلّف وأنّها جاهلة وغير متعلّمة، وعضو عاطل داخل مجتمع لا تتمتّع بحقوق العمل والأنشطة المتاحة لها كما في الغرب. دفعها

حرصها على المرأة بالمناداة بضرورة المساواة بين الرّجل والمرأة، وكانت تحض على التّمرد على وضعها داخل المجتمع الذّكوري، وتطالب بحقوقها الضّائعة، لتصبح عضوًا كاملاً في المجتمع له حقوق الرّجل وعليه واجباته.

نظرت إلى المرأة نظرة كليّة من خلال عدّة عناصر: كالحجاب، والاختلاط، وتعدّد الزّوجات، والعمل، وأكّدت أنّ المرأة تتمتّع بوضع إنساني طيّب وكريم في ظل الإسلام، الذي كرّمها في كلّ وظائفها في المجتمع؛ كأمّ وزوجة وأخت وابنة، وضمن لها الإسلام حقوقها كاملة في شؤون الزّواج والطّلاق والميراث. ورأت أنّ المرأة في الإسلام إنسانة مستقلة ومسؤولة مسؤوليّة دينيّة ومدنية كاملة، وقد اعترف لها بكرامتها الكاملة وبشخصيتها المستقلّة عن الرّجل، وأنّه قرن بينها وبين الرّجل في مواضع عدّة وعاملها على نفس المستوى مع الرّجل في الأمور الدينيّة والدنيويّة. وعاملها الإسلام المعاملة الشّرعيّة المستقلّة كإنسان مسؤول دينيًّا وأخلاقيًّا وكثيرًا ما خاطبها القرآن خطابًا مباشرًا من دون أن يعتبرها تابعة للرّجل في مسؤوليّاتها.

أهمية البحث

تأتي أهميّة البحث من تركيزه على موقف المرنيسي مع المرأة بعد تزايد الوعي بحقوق المرأة سلّطت الأضواء حول التّمايزات القائمة بينها وبين الرّجل، وأثير اللّغط حول فكرة القوامة، وما استصحبته من حديث عن مشاركة المرأة في الحياة العامة، وحظّها من الولاية. وقد وجدت فاطمة المرنيسي أنّه يجب تعديل الموروثات الثّقافيّة والتّقاليد الوافدة التي تمتهن المرأة وتهمّش دورها في المجتمع، وتعتدي على حقوقها وحرمتها بذريعة الحفاظ عليها وعلى كرامتها، فالشّرع الحكيم أعلم بما يصلح للمرأة وما لا يصلح لها، وعلى المؤسّسات الدّينيّة والتّعليميّة في العالم الإسلامي عرض جميع قضايا المرأة حقوقًا وواجبات، على الكتاب والسّنة، وجعل الحاكميّة لتحديد الحقوق والواجبات للمصدّرين الأزليّين من دون سواهما. وبيّن البحث جهود المرنيسي التي كانت في كل كتاباتها دائمة السّعي وراء التّساؤلات عمّا هو موجود في ذلك العقل الذّكوري عن المرأة بغرض التّعرف إليه وتحريره من كلّ ما توارثه الرّجل عن المرأة، في ظلّ العادات والتّقاليد والبداهة والمألوف التي طبعت صورة النّساء في التّاريخ العربي الإسلامي، ولم تجعل لها حضورًا فاعلاً فيه.

النّظريّة النّسويّة

النّسويّة هذا المفهوم الذي امتدّ وتشعّب وتعمّق وما عاد يشمل حقوق المرأة وقضاياها وضرورة تمكينها مقابل هيمنة الرّجل التّقليديّة والتّاريخيّة في ميادين المعرفة والثّقافة والنّشاط العام في المجتمع، بل أصبحت أبعد من مجرّد ثنائيّات متقابلة: رجل/ امرأة، الهدف منها تحقيق التّوازن بينهما من حيث الأدوار الاجتماعية بمختلف أبعادها.

الفحوى الأساسيّة لتاريخ الثّنائيّات هي عدم تقبّل الآخر، أي عدم الاعتراف به ككينونة وقدرات منفصلة عن ذواتنا، ثم عدم التّصالح مع الآخر، لأنّ شرط التّصالح مع الذّات أولاً من خلال اعترافها بنواقصها المعرفيّة والأخلاقيّة والإنسانيّة، هذه النّواقص التي تمنع الذّات المتغوّلة من قبول ما هو مختلف. فالنّظريّة النّسويّة نظريّة فلسفيّة تطرح موضوع الإنسان باعتباره إنسانًا، وإن كانت امرأة، بغض النّظر عن جنسه، وهذه النّظرة الفلسفيّة لا تقترح النّزال مع الآخر بهدف كسره وهزيمته، بل بالاعتراف به والقبول بوجوده المختلف، وهذا جوهر الدّيمقراطيّة. وأدّى مبدأ خضوع المرأة للسّلطة الذّكوريّة في المجتمع إلى ظهور النّقد النّسوي، والذي اشتمل على ثلاث قضايا أساسيّة[١]:

أولاً: التّنميط الاجتماعي والثّقافي لأدوار الجنسين، والذي يطرح مكانة اجتماعيّة للمرأة من دون مكانة الرّجل، وهذا جذر التّمييز ضدّ المرأة على أساس النّوع البيولوجي.

ثانيًا: النّظام الأبوي المهيمن على مؤسسات المجتمع هو الذي يعزز هذه التنميط ضد المرأة.

ثالثًا: إنّ تجربة المرأة المعرفيّة الانتقاديّة هي التي ستقضي على هذا التّنميط لدور المرأة وتحقّق المساواة بين الجنسين ليس في بعدها الحقوقي فحسب بل وفي الأشكال الرّمزيّة للاضطهاد الماثلة في مضامين اللّغة والسّلوك الاجتماعي الرّاسخ عبر التّاريخ، ممّا سيعني أنّ معركة تحرير المرأة تتجاوز الحقوق القانونيّة إلى الحقوق المعرفيّة التي تنبغي إعادة النّظر فيها بإحداث ثورة معرفيّة تتناول المفاهيم والسّلوكيات الاجتماعيّة الرّاسخة. وعلى الرّغم من أنّ الدّين يجيب على الجزء الأكبر من القضايا التي تخصّ المرأة، ولكن حتى يتخلّص المجتمع من نظريّة خضوع المرأة للرّجل، يجب أن تتغيّر النّظرة النّمطيّة عن المرأة التي تَقْصُر اهتمامها على الطّبخ والإنجاب، وهذا مسؤوليّة دور التّنشئة الاجتماعيّة التي يتمحور دورها على عكس ما كرّسه الأجيال في ذاكرتنا حول المرأة.

والعمل على نبذ المضامين السّائدة والتي تفيد بعدم قدرة المرأة على التّفكير السّليم واتّخاذ القرارات الصّحيحة لأنّها عاطفيّة، فهذه المضامين بحاجة إلى إعادة صياغة، فهي وإن كانت عاطفيّة لكن لا نلغي دور العقل عندها، ونتساعد جميعًا ببناء صورة جديدة متجدّدة للمرأة وغرسها في النّاشئة ونبذ تلك الصّورة التّقليديّة، التي رسّخت استسلامها للرّجل. والأهم أن نسعى لبناء مشروع تصوّري لا يتسامح مع واقع يظلم المرأة، أو أي ثقافة تحطّ من شأنها أو قيمتها، مهما كان شكلها أو مصدرها، وبخاصّة أولئك الذين اتّخذوا الدّين ذريعة لإذلال المرأة.

- **المرنيسي والنّظريّة النّسويّة**

أسّست فاطمة المرنيسي مشروعًا فكريًّا رائدًا، خاضت في أكثر القضايا حساسيّة، وقَصرت كتاباتها على قضية المرأة، وكلّ ما تعانيه، كتبت بحيادية مطلقة لم تتجنَّ ولم تتّهم من دون أدلّة واضحة، ودافعت عنها وطالبت بتحرّرها من سلطة الرجل.

انفتحت في كتاباتها على واقع المرأة العربيّة إلى واقع المرأة في الدّول المتقدّمة، لتخلص إلى تردّي واقع المرأة العربيّة في اختلاف المشارب الثّقافيّة، وبيّنت بنصوص من الدّين والتّاريخ كيف كان وضع المرأة قديمًا وكيف هي الآن. وكرّست تفكيرها وكتاباتها من أجل الدّفاع عن حقوق النّساء في عالم ذكوري متعاظم، فعرفت بأبحاثها الفكريّة والاجتماعيّة لخدمة قضايا تحرير المرأة والرّقي بمستواها الاعتباري والوجودي. واختارت فاطمة المرنيسي أن يكون مشروعها الفكري والنّضالي منحازًا للمرأة ومدافعًا عن قضاياها، من دون أن تجعل من الرّجل عدوًّا، لأنّها تؤمن بقيمة الإنسان قبل كل شيء، ولم تنتقد وضعيّة المرأة في العالم العربي والإسلامي فقط، بل مضت إلى نقد وضعيتها في المجتمع الغربي، وتعرية واقع الاستلاب والعبوديّة المقنّعة التي تسود عندهم. ولم تكن متنكرة لحضارتها العربيّة الإسلاميّة واسهاماتها في تحرير المرأة كما يرى أصحاب القراءات الجاهزة والمتّسرعة، بل كانت تفرّق بين النّصوص الدّينيّة الإسلاميّة من قرآن وسنّة، التي تعتبر إطارًا متقدّمًا لحريّة المرأة والواقع التّاريخي، الذي اتّخذ منحىً تراجعيًّا خطيرًا في عصر ما بعد النّبوة، حيث أصبحت المرأة أسيرة التّقاليد والتّأويلات الخاطئة للنّصوص الدّينيّة، وهو ما تجلّى في أبحاثها حول الجنس وتوزيع السّلطة في الفضاء الاجتماعي ودور المرأة في التّاريخ الإسلامي[٢]. ولم تكن تكتب عن المرأة لأنّها امرأة، ولكنها اختارت أن تكتب في الشّائك والمهجور والمسكوت عنه. وأهم القضايا التي شملتها نظريّتها النّسويّة:

- **المرأة والمجتمع التّقليدي**

المرأة التي تعنى بها المرنيسي هي المرأة في المجتمعات التّقليديّة، تلك المجتمعات المحكومة بنسق متماثل من القيم شبه الثّابتة أو الثّابت، والتي تستند تصوّراتها عن نفسها وعن غيرها إلى مرجعيّات عقائديّة وعرقيّة ضيّقة، والّتي تتحكّم بها روابط عشائريّة أو مذهبيّة، والتي لم تفلح في صوغ تصوّرات كلّيّة عن حاضرها، فلجأت إلى الماضي في نوع من الانكفاء الذي تفسّره باعتباره تمسّكًا بالأصالة. وعدّت من مظاهر الإجحاف بحقّ المرأة العنف القائم على أساس النّوع وهو سيطرة الرّجل عليها وخضوعه له، فهذا التّمييز يعد أسوأ أنواع التمييز في العلاقات الاجتماعية. وهذه هي المجتمعات الأبويّة التي يتصاعد فيها دور الأب الرّمزي من الأسرة وينتهي بالامة، والتي لم يتحقّق فيها الشّراكة التّعاقديّة في الحقوق والواجبات، والتي تعتصم بهويّة ثقافيّة ثابتة وتخشى التّغيير في بنيتها الاجتماعيّة، وتعتبره مهدّدًا لقيمها الخاصّة وتفسّر كلّ تحديث باعتباره تهديدًا، وتعيش باستمرار تحت طائلة التّأثيم، فهي مضروبة في صميمها بفكرة الإثم الحاضرة في أقوالها وأفعالها، فكلّ فعل لكي يكتسب شرعيّته ينبغي عليه أن يتطابق مع تقليد ما أو نصّ(٣).

الرجل مشغول بحجز النّساء في البيت الكبير ولكنه لا يظهر تململاً من وجود الأجنبي، حتى أن المرأة خي وحدها التي تخترق حاجز الخوف، وتكاد تغيب صورة الرّجل في الصّراع ضدّ الأجانب، ودائرة أخرى أكثر سعة يمثّلها الصّراع الثّقافي بين نمطين من القيم؛ القيم الموروثة من الماضي كتقاليد وفلكلور والتي تؤمن بشريعة حبس النساء كحريم ويمثلها الرجال إجمالاً ومعها فئة متنفذة من النساء وهي الجيل الأكبر جيل الجدات(٤).

وقيم مستحدثة غزت الجيل الأصغر بفعل المؤثرات الغربية وبفعل الحركة الوطنية المغربية الناهضة في تلك المرحلة، وهي تريد تخليص المرأة من الأسر الاجتماعي، ثم دمجها في مسار المجتمع كعنصر فاعل، ويناصر هذه القيم كل من الأم ، وتتقاطع هذه التّيارات المتعارضة في شخصيّة المرنيسي.

تتكشف القيم في المجتمع لتكشف أنّه متصارع يفضح المأزق الثّقافي الذي تتخبّط فيه المجتمعات، فالأجنبي والنّساء الأحدث سنًّا يقفون باطّراد مع حرّيّة المرأة، والرّجال العجائز من النّساء يرفضون ذلك، وتقف المرنيسي بين ثقافتين تتنافسان في القيم الاجتماعية. وحاولت أن تكشف موقف النّساء وهن ينشطرن بين عوالم ثقافيّة متضادّة، ومحاولتهم لهضم هذه المتناقضات، وبذلها الجهد لتخطّي أسوار الحريم تجاه العالم الرّحب.

- **المرأة والجسد**

ووصفت هذه المجتمعات بأنّها مجتمعات التّردّد والحيرة والثّبات التي تتحوّل فيها المرأة إلى حرباء متقلّبة، تحجب وتكشف وتستبعد وتستحضر في آن واحد، وخلف كلّ حجاب ثمّة جسد يفجّره العنفوان، وصورة المرأة معقّدة في هذه المجتمعات، أنّها رماد يواري جمرًا، يخفي كينونتها الإنسانيّة وراء حجب الإهمال والاستعباد، لكنّه يستدعيها وقت الرّغبة والمتعة، العلاقة بين الاثنين محاطة بقلق مستفحل.

ترى المرنيسي في كتاباتها أنّ الرّجال يعدّون الأنثى علامة تدلّ على ضعف المرأة في شتّى المجالات والكفاءات، مستدلّين بالضّعف الجسمي لها، للإشارة إلى حالة ضعف عام تنسحب على جميع القدرات العقليّة والثّقافيّة والعلميّة والاجتماعيّة لدى المرأة، من دون انفصال بينهم. ففي الوقت الذي يمارس فيه الرّجل هذه الازدواجيّة، تستجيب المرأة للضّغوط المتقاطعة التي تفرضها تقاليد أكثر شبه مغلقة صار هاجس بعثها مجدّدًا أحد أكثر التّحديّات الثّقافيّة حضورًا في عصرنا، وتطلّعات تحرّريّة مستعارة أنجزتها مجتمعات أخرى (٥). وهذه التّقلبات المستمرة في حجب الجسد

وكشفه وطمره والإعلان عنه، منحه والبخل به، يمزق في كل لحظة مبدأ الاحترام الإنساني له، فهو جسد مذلّ ومهان، لكنّه مبرمج اجتماعيًّا ليظهر على أنّه معزّز ومكرّم(٦).

لم تغبْ هذه التّرابطات المحكمة بين جسد يحتضر خوفًا ورغبة من مجتمعات تقليديّة عن اهتمام المرنيسي، كانت هذه الترابطات في الواقع موضوعها الأكثر أهمّيّة منذ البداية، وفي ضوء ذلك، يمكن فهم الحاجة للانتقال بالبحث عن منهجيّته الوثائقيّة الصّارمة إلى منهجيّته التّمثيليّة الموحية، من تحليل الأنساق الثّقافيّة إلى تمثيلها. وكانت ترى أنّه من الطّبيعي أنّ تتلاعب هذه الأمواج والتّيارات بالبنية الذّهنية للمرأة، وتجعلها ترى ذاتها معكوسة في مرايا متعدّدة، والحق فإنّ الجسد الأنثوي هو المرأة التي تنطبع عليها كلّ هذه المؤثرات. فيظهر جسدًا متخلّفًا يدعي العفّة والطّهارة والنّقاء حيثما يكون في قبضة التّقاليد المحافظة، لكنّه في غيابها المؤقت سرعان ما يستجيب له(٧). ولم تكف فاطمة المرنيسي عن العمل المضني والمتواصل الذي تمثّله الكيفيّة التي قام بها الخطاب في تمثيل عالم المرأة الإسلاميّة أولاً، والعربيّة ثانيًا، والمغربيّة أخيرًا، والواقع فإنّ عملها يتوزّع بين بحث استقصائي منهجي محكَم خاص بصورة المرأة في التّاريخ.

هنا تظهر مهارة في استخلاص عناصر موضوعها، وتعبير تمثيلي ذاتي عن صورتها كأنثى، في مجتمع تقليدي، ويشتبك كل من البحث والتمثيل معًا بهدف تعويم صورة مختبئة في ثنايا التاريخ من جهة والواقع من جهة أخرى. ففي كتبها جميعًا تنفتح المرنيسي على أفق أكثر سعة، أنّها تؤشّر إلى الفكرة الحاضرة الملتبسة عن كيفية الاندماج الطبيعي في عالم يقوم بتحديث نفسه، وتراه منشطرًا بين غرب يسعى لتحويل التّحديث إلى عمل مستحيل، من خلال تمزيق الأنساق التي لا بدّ لكلّ تحديث أن ينتظم فيها، ومجتمع ذكوري يعتمد على إقصاء نصفه؛ كعورة فاضحة وقاصرة ومبتورة ومطمورة، ولكنّه مثير للشّبق، وهو قطاع النّساء(٨).

إنّ كلّ من الغرب والذّكوريّة العربيّة يتبادلان المصالح، ويقهران المرأة وسلسلة الانهيارات المعاصرة في سلم القيم، يراد بها الحيلولة من دون تقبّل المرأة كآخر، وفي النّهاية تدفع المرأة إلى الحاشية ليجري تهميشها ككائن خلق للنّسيان في طيّات الحياة المهملة. يتعاملون مع المرأة كذات يأخذ وجودها معنىً واحدًا هو الجسد؛ مادّة اللّذّة وموضوعها، إنّها الجسد، يمكن أن يقلب على جوانبه يفحص باستيهام ذهني، وتدرّج تفاصيله في سياق الشّبق اللّغوي، ويعاد انتاجه كمادة دعائيّة من أجل استثارة رجولة خاملة، تعاني الإخفاق والانكسار في عالمها، فتبالغ في الادّعاء الذّكوري.

وبإزاء هذا الاختلال في النّظرة وتلك المصادرة الإنسانيّة، لا يحصل توافق طبيعي بين الأجساد لأنّه توافق هش ومصطنع يقوم ذهنيًّا على الاستباحة والاغتصاب والأنانيّة، وليس على احترام الذّات كذات لها كيانها المستقل.

قراءات المرنيسي كانت جديدة بأسلوب جريء اعتمد على كسر التّابوهات، ونقد الفكر الذّكوري التّقليدي من خلال التّقرب من الخصم وإعلان مصادقته، ولا يمكن أن تصنّف دراسات المرنيسي وبحوثها مع أطروحات التّحرر المفرط الذي نادى به بعض رواد الحركات التّحرريّة في الغرب. وحاولت ضمن مساحة الأطر الشّرعيّة لتفكيك السّلطويّة الذّكوريّة في الوعي الإسلامي التّقليدي، والذي استعمل الدّين والشّريعة للهيمنة على المرأة، بالحق كانت المرنيسي دعوة للبحث عن الحقيقة في مناطق مظلمة، وتاريخ مقفل بعقول مغلّفة، كانت دعوة للتفكير.

- **المرأة والحجاب**

أدركت في وقت مبكّر أن الكتابة هي وسيلة عظيمة للمرأة من أجل التّحرّر من قيود المجتمع، " فقط مجرد أن تكتب لديك صوت السلطة – هذا هو المدلول الاساسي عندما نتكلم عن الكتابة"(٩). وهكذا المرنيسي لم تُرِدْ أن تبقى

النساء صامتات، ينبغي أن تتكلّم وتحكي مثل شهرزاد، وفعلت ذلك بأسلوب مرح وطريف عندما قالت "الكتابة هي أفضل علاج للجمال"(١٠). فالمرأة التي لا تعبر عن نفسها ولا تتكلم هي امرأة محجبة، بالنسبة للمرنيسي، ليس غطاء الرأس هو الحجاب، وانما الصمت هو الحجاب الحقيقي(١١). فقد تغيرت عادات ارتداء الحجاب الإسلامي تحت تأثير دعوى النّخب الاستعماريّة والوطنيّة بأنّ في الحجاب قهرًا للمرأة، وكان التّغيير عنيفًا في بعض البلاد ففي نهاية ستينات القرن العشرين؛ اختفى الحجاب أو النقاب في كثير من البلاد الإسلامية أو كاد، باستثناء نساء القرى الصغيرة والطّبقات الدّنيا، وكان التّعبير أقلّ عنفًا في بلاد أخرى. ثم تحول تيار الحجاب إلى حركة نسائيّة باسم العودة إلى الحجاب، وقد عجز الفكر التّقليدي الغربي عن إدراك التّعقيد الاجتماعي لفعل التّحجّب، إذ يرى أن الحجاب رمز للقهر في الإسلام. وسعت لتفنيد هذا الافتراض الغربي الشائع؛ بأن كلّ من ترتدي غطاء الرأس تفعل ذلك قهرًا أو كرهًا، وأن غطاء الرّأس يمثل قهرها في الإسلام، وكذلك إبراز الظّلم الذي يتعرّض له النّساء في الغرب حين يفرض عليهن فكرة الحجاب قهرًا. ولم تكن ضدّ الدّيني وإن كانت ترى في الحجاب وسيلة لإيذاء المرأة، اعتمدها المنافقون ودافعت عن موقف الإسلام من المرأة لكنها وجدت العلة في وعي المسلمين التقليدي.

فمن أهمّ القضايا الإشكاليّة التي طرحتها الحجاب كظاهرة دينيّة، وضرورة تحرّر المرأة العربية من عقبة تقف في طريق تقدّمها، وتحرمها من المساهمة في بناء مجتمع سليم معافى يعتمد على التّحليل اللّغوي والتّاريخي، مجتمع مبني على عدم التّفريق بين الذّكر والأنثى، يؤمن بتكافؤ الفرص، الحجاب حسب مفهومها ليس السبيل لستر العورة، بل لستر الحياة والحرّيّة فقط، وأضع هذا النوع من التشريعات في قفص الاتهام بحجّة تناقضها مع مبدأ الحرّيّة التي طرحها الإسلام في رسالته، المؤسف في الأمر أنّ الاستعمار هو من ضغط على الحكومات الإسلامية من أجل منح الفرد الحرّيّات الشّخصيّة والحقوق التي منحه إيّاها الإسلام(١٢).

نجد أنّ المرنيسي ترى الحجاب أعطى التّبرير للاغتصاب على اعتبار أنّ من لم تكن تضع الحجاب ليست من الأحرار ومباح اغتصابها، اعتبرته انتصارًا للمنافقين الذن امتلكوا مساحة لايذاء المرأة بحجّة أنّها غير محجّبة. وترى في نظريّتها تجاه الحجاب بأنّ الحجاب أداة تقوّي المرأة على المقاومة في الثّقافة الرأسماليّة الاستهلاكيّة للقرن الواحد العشرين، بما فيها سلعنة الجسد الأنثوي، وأنّ الحجاب لا يخنق الأنوثة، ولا يدلّ على غياب الاختيار، والحجاب أمر ديني، إذا ارتدته المرأة احترامًا للدّين فإنّه يمثل لها بوابة دخول إلى العالم الإسلامي.

بدّدت الرأي الغربي الشّائع حول كون الحجاب رمزا لقهر المرأة المسلمة، ما هو الا صورة مختلفة لا تعكس خبرة النساء اللاتي يرتدين الحجاب، هذه الصورة المختلفة كانت دائمًا في خدمة السياسة المغربية، ولا زالت كذلك في القرن الواحد والعشرين، وبالإضافة إلى ذلك فهي ترى أن القول بارتباط ليبرالية لمفهومي المساواة والحرّيّة هذه التّعريفات تعرف بدورها طرقًا أخرى لفهم المساواة والحرّيّة من شأنها أن تتيح مدخلاً لا أكثر إيجابيّة للتّفكير في ارتداء الحجاب(١٣).

أهمّ ما أثار الجدل في مؤلّفات المرنيسي هو خرق السّائد والخطوط الحمراء، فكلّ ما كان محظورًا ومحرّمًا هاجسها تعلّق بالمرأة، فقد ركّزت في أبحاثها ودراساتها على علاقة المرأة مع المجتمع من النّاحية الاقتصاديّة، والعلاقة الزّوجيّة التي لازالت مرتبطة إلى اليوم، وفي كثير من المجتمعات بمفهوم الأب المضطهد للمرأة، ومفهوم الحجاب والعمل بعيدًا عن مفهوم اقتصاد الفرد لأنّ الاستغلال لم يكن حكرًا على مجتمع المدينة الذي حاول استغلال حاجتها.

- **المرأة والسّياسة**

ويمكن التّأكيد على الدّور البائس الذي لعبته المرأة الرّيفيّة بشكّل مجاني من غير أي مردود خاص بها؛ لخدمة الرّجل والعائلة والحيوان والطّبيعة والعادات المتوارثة، مستخدمة منهجها التّنويري والأفكار العلميّة لتطهير النّص الكلاسيكي، وتقديمه برؤية معاصرة معتمدة على البحث والبرهنة، وتقديم الدّليل من المصدر ذاته الذي اعتمده البعض لتقييد الفكر. وكان القرآن والأحاديث التي شكّكت بصحّة بعضها أهم مصادر المرنيسي، ناهيك عن الشّريعة التي كانت تعتبرها المتهم الأوّل في الوضع المزري الذي عاشته المرأة العربية، سواء من ناحية المساواة بين المؤمنين (الرجل والأنثى) التي طرحتها العقيدة، وبين عدم المساواة بين الزوج وزوجته المؤمنة، وكيف تكون هذه المساواة بعد تأطير الأنثى ضمن مفاهيم العفة والجنس[١٤]. ولم تبرّئ الأنظمة السّياسيّة والدّيمقراطيّات المشوّهة التي أنتجتها تلك الأنواع من السّلطة، من مسؤوليّة تدهور النّظم الاجتماعيّة والاقتصاديّة وزجّ المرأة في المجتمع كسلعة أو جارية مجرّدة من أي سلطات، خاضعة في الوقت ذاته لسلطة الذّكر، سواء داخل نطاق الأسرة أو خارجها، والتي أنتجت بشكل طبيعي هوية ممسوخة للمرأة العربيّة، وأظهرتها ككائن جنسي محتقر[١٥]. وتعتبر أن أهم الأسباب لعدم مشاركة المرأة في السّياسة هي الهيمنة الذّكورية على علاقة المرأة بالسياسة، فالرّجال تحول دون وجود المرأة في العمل السياسي، وتستخدم هذه الأيديولوجيا لوضع المرأة داخل الساحة الخاصة بالمنزل كأم وزوجة وتعتبر هذه واحدة من أهم العوامل الحيوية التي تشكل مستوى المشاركة السياسية للمرأة[١٦].

أشارت إلى أنه في القرن الثامن للميلاد كانت زوجات النّبي يناقشن في السّياسة، ويذهبن إلى الحرب، كما أنّ النبي نفسه عزم على إقامة مجتمع ديني وديمقراطي يناقش فيه الرجال والنساء قوانين المدينة. بمعني أنّ القرآن والسّنة مثلاً إطارًا متقدمًا لحريّة المرأة ضمن سياقها التّارخي، إلا أنّه في عصر ما بعد النّبّوة ستأخذ الوقائع منحىً تراجعيًّا ساهمت فيه التّقاليد الجامدة والتّأويلات المغلقة للنّصوص الدّينيّة. وقدّمت المرنيسي صورًا عن سلطة النّساء المعتّم عليها في الدول الإسلامية، وارتحلت إلى البحث عن دور المرأة في التاريخ الإسلامي والعربي[١٧]، ودعت المرأة إلى المشاركة السياسيّة، والمشاركة في اتّخاذ القرارات الحياتيّة، وتحديد مسيرة التّنمية، وهي عملية مستمرة يشارك فيها كل إنسان سواء أدرك ذلك أم لم يدركه.

- **المرأة والغرب**

تنصّلت من الحركة النّسائيّة الغربية، واعتبرت نفسها مناضلة نسوية، لكن الحركة التي تنتمي إليها تختلف عن الغربية التي تنادي بالتّنصّل اجتماعيًّا، وكذلك في مجال الأدب من الرّجل، وعبّرت عن رأيها في الحركة النّسويّة في العالم الغربي " هناك اختلافات كبيرة بين الحركة النسائية العربية والأوروبية، الحركة النسائية العربية ليست حركة نسائية خالصة، فهي تضم النساء والرجال المستنيرين، الحركة النسائية في الغرب هي حركة نسائية محضة، لا مكان للرجال هناك"[١٨]. انتقدت نظرة العالم الغربي للمرأة في الإسلام، وأوضحت أنّ أفكار الثقافة الغربية عن النساء، ليس علاقة بالنساء الذي تعرفه، ولا يوجد بينهما اي علاقة مشتركة. وناضلت المرنيسي في الثقافة الغربية ضد الاستبداد الذكوري عبر كتابها (شهرزاد ترحل إلى الغرب) لتبيّن للقارئ المكانة التي منحتها الثقافة الإسلامية للمرأة مقارنة مع ذكورية الغرب وعلاقته بنساء الشرق. ومع أنّ الفكر الغربي وأيديولوجيّته سيطر على فرضيّات وبحوث واستنتاجات المرنيسي، ودفع غلاة النّسويّة للاحتفاء بمواقفها ومؤلّفاتها، إلا أنّ ذلك لم يمنع الغرب من نقد وضع نساء الغرب، وفقًا للمنهجيّة التّحليليّة الغربية فقط في مرحلة شبابها ونضارتها، بينما تعيش حالة من العزلة باقي حياتها على هامش غير

محدّد المعالم بعد تلك المرحلة هو انتهاك أخلاقي، مبرهنة أنّ الاستبداد الذّكوري واحد في الشرق والغرب[١٩]. وانتقدت وضعيّة المرأة في العالم العربي الإسلامي، في كتابها (هل أنتم محصنون ضدّ الحريم؟) واهتمّت بمثلها في المجتمع الغربي نفسه، بحيث فضحت فيه واقع الاستلاب والعبوديّة المقنّعة داخل الغرب، الذي ينظر إلى المرأة بوصفها دمية معدّة للاستغلال من قبل الرّجال.

إنّ حالة الاستبداد التي يحاول الغرب وصمَ الشّرق بها، خاصّة من خلال مفهوم الجنس، فالرّغبة الجنسيّة واحدة، والغرب لا ينظر للمرأة الشّرقيّة أكثر من شهرزاد اللاهية على سرير شهريار، ومن نظرته تلك لمفهوم الكائن المحروم من الحقوق والاستقلاليّة أتى مفهوم (الحريم) في الشرق بالنسبة للغرب وارتبط بالتاريخ وقصور الخلفاء وأولي الأمر، الذين كانوا يتّخذون المرأة العربيّة جارية وقينة لعوبًا.

خاتمة

تعد نظرية فاطمة المرنيسي من أعمق النظريات وأصدقها وأكثرها قربًا من الواقع، إذ كان هاجسها الوحيد هو تحرير المرأة، وتميّزت بتأويلها للمقروء التراثي، التأويل الذي يجعله معاصرًا لنفسه ومعاصرًا لنا في آن واحد، وهي تتقدّم في هذا المجال الوعر خطوات كبيرة.

المرنيسي على وعي تام بأن الجنس في حالة تبعية تاريخية للجنسانية، وتتجه لحقل السلطة/ المعرفة، لتقرأ ما لم يقرأ بعد، وفي تعاملها مع النص التراث كشبكة من العلاقات المعرفية والسلطوية بأن تقوم بإخضاع النص التراثي لعملية تشريحيّة دقيقة وعميقة تحوله بالفعل إلى موضوع للذّات إلى مادة للقراءة. وكتبها تعلن صراحة من العناوين عن إشكاليّة تحرير المرأة هي في النهاية إشكاليّة سياسيّة واجتماعية، وتعبر دائمًا أنّ دونيّة المرأة لا تمت إلى حقيقة الإسلام كنصّ بل إلى الإسلام السّياسي التّاريخي، والذي هو عبارة عن تراكمات لمعارف وخبرات إسلاميّة وغير إسلامية تمتد إلى العصر الجاهلي وصولاً إلى عصرنا الحاضر.

تفصح في كتبها عن الأسئلة الممنهجة التي توجّه مسار البحث، والمضمرة في ثنايا الكتب، ونرى أنّ الثابت البنيوي في خطابها هو أنّ الإسلام سلّ ثورة شاملة بالنّسبة للتّقاليد الدّينيّة اليهودية- المسيحية وعلاقاتها بالمرأة، ومن خلال صفحات كتبها – التي توجّهه للفرنسيين اذ تكتبه باللغة الفرنسية- لا تمل في الثناء على الرّسول - ﷺ - وعلى أخلاقه، وعلى تعامله الإنساني والنادر في التاريخ مع المرأة. كما أنّنا نشاركها خوفها من المجهول على الرغم من نبرة التفاؤل التي تقع في متن أعمالها، الخوف من الغرب، والخوف من الحاكم والإمام ومن حريّة التّفكير والحرّيّة والماضي والحاضر.

إنّ البحث في اللامفكّر فيه هو بحث في تاريخ لما يزل مموّها ومحجوبًا في آن، وهو بحث من شأنه أن يكشف لنا كيف يمكن اغتيال التاريخ على يد مؤرقين لاحقين ومؤدلجين وتسكنهم هواجس الخوف من النّسويّة، ويستعرون بأن بواعث التعبير عن عدائهم للمرأة من مكبوتات جاهلية ظلت محايثة للإسلام الروحي ووجدت طريقها إلى الإسلام السياسي. وهي عندما بحثت عن التاريخ الآخر، عن تاريخ السلطانات المنسيات اللواتي مارسن السياسة، وتجاوزن عتبة النساء وكسرن الحلقة المفرغة التي تربط بين الجنس والسياسة، وكان ذلك حسب رأيها لفهم تاريخ النساء في الإسلام، على الأخص في الإسلام، فإنّه محكوم عليه كتاريخ الفلاحين أو الفقراء بألا يعبّر عنه مطلقًا في الخطاب الرّسمي.

ويمكن القول أنّ المسار الفكري لفاطمة المرنيسي مرتبط بفكرة الحوار ضدّ الخوف، والانطلاقة كانت من محاربة الخوف من المرأة كعنصر، يمكن تفسير العلاقة التّحرّريّة معها من خلال التراث الإسلامي، والنّقطة الثّانية هي الخوف من الحداثة، وهذا تصوّر الغرب عن العرب والمسلمين.

فالمرنيسي تحكمها إرادة معرفة في البحث عن الحقيقة، أو لنقل عن تاريخ حقيقي حكمت فيه النساء المسلمات، لا تمنعها إرادتها من رؤية الوجه الآخر، وهذا هو نتاج المعرفة، والوجه الذي يؤكد على أنّه في كلّ مرّة حصلت فيها النّساء على السّلطة مارسن الفظائع التي لم يأتِ بها الرّجال على عظمها، ومارسن الاغتيال السياسي. وهي المتفائلة بإمكانيّة نهضة العالم العربي وتجاوزه لكبواته يحدوها حدسها كامرأة بالتفاؤل، فنحن في زمن تحجب فيه كل أشكال المقاومة، إذ إن تحجيب المرأة هو تحجيب للمقاومة.

هوامش البحث

(١) . حفناوي بعلي، مدخل إلى نظرية النقد النسوي وما بعد النّسويّة، الدار العربية للعلوم، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٤٦.

(٢) . فاطمة المرنيسي، سلطانات منسيات، ترجمة فاطمة الزهراء ازرويل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٠م، ص ٧٢.

(٣) . فاطمة المرنيسي، الحجاب والنخبة الذكورية، المركز العربي، بيروت، ١٩٨٧م ، ص ١٣١.

(٤) . فاطمة المرنيسي، نساء على أجنحة الحلم، ترجمة فاطمة الزهراء ازرويل، دار المركز الثقافي، بيروت، ١٩٩٨ م، ص ٦٥.

(٥) . فاطمة المرنيسي، الحريم السياسي: النبي والنساء، ترجمة عبد الهادي عباس، دار الحصاد، دمشق، ١٩٩٣م، ص ٨٤.

(٦) . فاطمة المرنيسي، ما وراء الحجاب؛ الجنس كهندسة اجتماعية، ترجمة فاطمة الزهراء ازريول، المركز الثقافي، بيروت، ١٩٩١، ص ٤٣.

(٧) . المرجع نفسه، ص ٥٧.

(٨) . فاطمة المرنيسي، شهرزاد ترحل إلى الغرب، ص ٥٦.

(٩) . فاطمة المرنيسي، شهرزاد ترحل إلى الغرب ، ص ٦٢.

(١٠) . المرجع نفسه، ص ٢٢١.

(١١) . فاطمة المرنيسي، نساء على أجنحة الحلم، ص ٢٣.

(١٢) . فاطمة المرنيسي، نساء على أجنحة الحلم ، ص ٤٠.

(١٣) . فاطمة المرنيسي، الحجاب والنخبة الذكورية، ص ١٢٥.

(١٤) . فاطمة المرنيسي، ما وراء الحجاب؛ الجنس كهندسة اجتماعية، ص ٢١٨.

(١٥) . فاطمة المرنيسي، الخوف من الحداثة: الاسلام والديمقراطية، ترجمة محمد دبيات، دمشق، دار الباحث، ١٩٩٤م، ص ١٠٩.

(١٦) . فاطمة المرنيسي، هل أنتم محصنون ضد الحريم؟، ترجمة نهلة بيضون، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٠م ، ص ٢٠٦.

(١٧) . فاطمة المرنيسي، سلطانات منسيات، ص ٧٠.

(١٨) . فاطمة المرنيسي، شهرزاد ترحل إلى الغرب، ص٦٥.

(١٩) . فاطمة المرنيسي، شهرزاد ترحل إلى الغرب ، ص ١٠٠.

المصادر والمراجع

١. حفناوي بعلي، **مدخل إلى نظرية النقد النسوي وما بعد النّسويّة**، الدار العربية للعلوم، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٢. فاطمة المرنيسي، **الحجاب والنخبة الذكورية**، المركز العربي، بيروت، ١٩٨٧م.

٣. فاطمة المرنيسي، **الحريم السياسي: النبي والنساء**، ترجمة عبد الهادي عباس، دار الحصاد، دمشق، ١٩٩٣م.

٤. فاطمة المرنيسي، **الخوف من الحداثة: الاسلام والديمقراطية**، ترجمة محمد دبيات، دمشق، دار الباحث، ١٩٩٤م.

٥. فاطمة المرنيسي، **سلطانات منسيات**، ترجمة فاطمة الزهراء ازرويل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.

٦. فاطمة المرنيسي، **شهرزاد ترحل إلى الغرب**، ترجمة فاطمة الزهراء، المركز الثقافي، بيروت، ٢٠٠٢.

٧. فاطمة المرنيسي، **ما وراء الحجاب؛ الجنس كهندسة اجتماعية**، ترجمة فاطمة الزهراء ازريول، المركز الثقافي، بيروت، ١٩٩١.

٨. فاطمة المرنيسي، **نساء على أجنحة الحلم**، ترجمة فاطمة الزهراء ازرويل، دار المركز الثقافي، بيروت، ١٩٩٨م.

٩. فاطمة المرنيسي، **هل أنتم محصنون ضد الحريم؟**، ترجمة نهلة بيضون، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.